عرض وتحليل

إذا قِيل رفقًا قال للحلمِ موضعٌ وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلُ

أي أنه إذا أمر بالرفق بالأقران، وقيل له أرفق رفقًا، قال: موضع الحلم غيرُ الحرب، يعني: أن الرفق والحلم يستعملان في السلم، وأما الحرب فلا رفق فيها بالأقران، والحليم فيها جاهلٌ كواضع الشيء في غير موضعه، وقد أكثر الناس في هذ المعنى ومن أشهر ما فيه قول الفند الزماني:

وبعضُ الحلمِ عندَ الجَهـ ـل للذلَّة إذعانُ

وقول سالم بن وابصة:

إنَّ من الحلمِ ذُلاً أنتَ عارفُه والحلمُ عن قدرةٍ فضلُ من الكرَمِ

وقال الخُزيمي:

أرى الحلمَ في بعضِ المواضعِ ذُلةً وفي بعضها عزًّا يُسَوَّدُ صَاحِبَهُ

وقال الأعور الشنّى:

خذِ العفو واغفْر أيها المرءُ إنني أرى الحلمَ ما لم تخشَ منقصةً غنما

وقد ذكره أبو الطيب وقال: من الحلم أن تستعمل الجهل دونه، وقال: كل حلم أتى بغير اقتدار، البيت قال: إني أصاحب حِلمي وهو بي كرمٌ، البيت.

أهونْ بطولِ الثُّواءِ والتَّلفِ والسَّجنِ والقيدِ يا أبا دُلفِ

غيرَ اختيارٍ قبلتُ بِرَّكَ بي والجوعُ يُرضي الأسودَ بالجيفِ

يقول: قبلته اضطرارًا لا اختيارًا، كالأسد يرضى بأكل الجيف إذا لم يجد غيرها لحمًا، وهذا من قول المهلبي:

ما كنتَ إلاكلحمِ ميتٍ دعا إلى أكله اضطرارُ

ومثله لدعبل الخزاعي:

لعمرُ أبيكَ ما نُسِبَ المُعلَّى إلى كرم وفي الدنيا كريمُ

ولكنَّ البلادَ إذا اقشعرَّت وصوّح نبتُها رُعِيَ الهشيمُ

ومثله قول الآخر:

فلا تحمدوني في الزيارةِ إنني أزوركُم إذ لا أرى مُتَعَللا

وأبو دلف هذا كان صديق المتنبي، برّه وهو في سجن الوالي الذي كتب إليه:

أيا خَدَّدَ اللهُ وردَ الخُدودِ وقدَّ قدودَ الحِسانِ القُدودِ

يقول المتنبي:

وحفيفُ أجنحةِ الملائكِ حوله وعيونُ أهلِ اللاذقيةِ صُورُ

يقال في جمع الملك الملائكة والملائك جمع على غير قياس قَالَ حسان:

بأيدي رجالٍ هاجروا نحو ربهم وأنصاره حقًّا وأيدي الملائكِ

وصُور جمع أصْوَر، وهو المائل يقال: صاره يصوره إذا أماله وصور يصور إذا صار مائلًا، ومنه قول الشاعر:

اللهُ يعلمُ أنّا في تلفُتِنا يوم الوداعِ إلى أحبابنا صُورُ

يقول: أحاطت بنعشه ملائكة السماء، حتى سمع لأجنحتهم حفيف، وعيون أهل بلده مائلة إليه إما لأنهم يحبونه، فلا يصرفون عيونهم عنه، شوقًا إليه وحزنًا عليه، وإمَّا لأنهم يسمعون حسّ الملائكة، فيميلون نحو الحس الذي يسمعون.

كَفَلَ الثَّناءَ لَه بِرَدِّ حياتِهِ ... لما انْطَوى فكأنَّهُ مُنشورُ

يقال: أنشر الله الميت ومنه قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ** ﴾ [**عبس**: ٢٢]، ويقال - أيضًا - نشره، يقول: ثناء الناس عليه وذكرهم إياه بعده كفيل بردّ حياته؛لأنّ من بقي ذكره فكأنه لم يمت وهذا من قول الحادرة:

فأثنوا علينا لا أبًا لأبيكمُ ... بإحسانِنا إن الثَّناءَ هو الخُلدُ

وقال التميمي أيضًا:

رَدَّتْ صنائِعُه إليه حياتَه ... فكأنَّهُ من نَشْرِها مَنْشُورُ

وقال ـ أيضًا ـ الطائي:

سلفوا يرونَ الذّكرَ عيشًا ثانيًا ... وَمضَوا يعدُّون الثناء خلودًا

*****

سيُحيي بكَ السُّمَّارُ ما لاحَ كوكبٌ ... ويحدُو بكَ السُّفَّارُ ما ذَرَّ شَارِقُ

أي يحيون الليل بذكرك وحديثك، والمسافرون يغنّون بمدائحك فيحدون الإبل بها، وقوله: ما لاح كوكب، وما ذر شارق من ألفاظ التأبيد، والمعنى أبدًا، أي أنت أبدًا تذكر في الأسفار، ويحدى بمدائحك في الأسفار، هذا هو الظاهر، وقوم يقولون: ما لاح كوكب أي ما بقي من الليل شيء، وما ذرّ شارق أي ما بقي من

النهار شيء ترى فيه الشمس، وبهذا قال ابن جنّي أي يسيرون إليك نهارًا فينشدون مديحك، وإذا جاء الليل سمروا بذكرك، والقول هو الأول؛ لأنّ الحُداء لا يختص بالنهار بل يكون بالليل في أكثر الأمر، وغالب العادة.

إذا بدا حَجَبَت عَيْنيكَ هيبَتُهُ ... وليس يحجُبُهُ سترٌ إذا احتَجَبا

يريد أنه شديد الهيبة إذا ظهر للرَّائين حجبت هيبته عيونهم عن النظر إليه كما قال الفرزدق:

يَغضِي حياءً ويُغضَى من مهابَتِه ... فما يُكلَّمُ إلا حين يبتسمُ

وقال أيضًا:

وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم ... خُضعَ الرقابِ نواكسَ الأبصارِ

وقال أبو نواس:

إن العيونَ حُجِبنَ عَنْكَ بهيبةٍ ... فإذا بَدَوت لهُنَّ نُكِّس نَاظِرُ

وقوله:

ليس يحجبه ستر

يريد أن نور وجهه يغلب الستور فيلوح من ورائها كما قال:

أصبحتَ تأمرُ بالحجاب لخلوةٍ ... هيهاتَ لستَ على الحِجابِ بِقَادرِ

وذكر ابن جنّي تأويلين آخرين، أحدهما، أنّ حجابه قريب لما فيه من التواضع فليس يقصر أحد أراده دونه وإن كان محتجبًا، والآخر أنه وإن احتجب فليس بمحتجب لشدة تيقظه ومراعاته للأمور.

وَنَديمُهُم وبَهِم عَرَفْنَا فَضْلَهُ ... وبِضِدِّها تتبينُ الأشْيَاءُ

يقول نعيب اللئام، وفضله إنما يعرف بهم؛ لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها، فلو كان الناس كلهم كرامًا مثله لم نعرف فضله، وقال ابن جني: وهذا كقول المنبجيّ:

فالوجهُ مثلُ الصُّبحِ مبيضٌّ ... والشَّعرُ مثلُ الليلِ مسودُّ

ضدّان لما استجمعا حسنا ... والضِّدُّ يُظهرُ حُسْنه الضِّدُّ

وقال هذا البيت مدخول معيوب؛ لأنه ليس كل ضدّين إذا اجتمعا حسنا، ألا ترى أن الحسن إذا قرن بالقبيح بان حُسن الحسن، وقُبح القبيح، وبيت المتنبي سليم؛ لأن الأشياء بأضدادها يصح أمرها. انتهى كلامه وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى قال أبو تمام:

وليس يَعرِفُ طيبَ الوصلِ صاحِبُهُ ... حتى يُصابَ بنأي أو بهجْرانِ

وقال أيضًا:

والحادثاتُ وإن أصابكَ بُؤسها ... فهو الذي أنباكَ كيفَ نَعِيمها

وقال أيضًا:

سَمُجتْ ونَبَّهنَا على استسمَاجِها ... ما حولها من نُضْرةٍ وجَمَالِ

وكذاك لم تُفْرِطْ كآبةُ عاطلٍ ... حتى يجاورها الزمانُ بحالي

وقال البحتري أيضًا:

قد زادَها إفراطُ حُسنِ جِوارَها ... لأخلاق أصفارٍ من المجدِ خُيَّبِ

وحُسنُ دراريِّ الكَواكِبِ أن تُرى ... طَوَالعَ في داجٍ من الليلِ غيهبِ

وقد ملح بشار في قوله:

وكانَ جَواري الحيّ إذ كُنْتِ فيهمُ قِباحًا فلما غِبتِ صرنَ مِلاحا

وأبو الطيب صرح بالمعنى، و بيّن أن مجاورة المضادّة هي التي تثبت حسن الشيء وقبحه ثمّ أخفاه في موضع آخر فقال:

ولولا أيادي الدهرِ في الجمعِ بيننا غَفَلنا فلم نَشْعُر له بذنوبِ

*****

مُتَفرِّقُ الطعَّمينِ مُجْتمِعُ القُوى فكأنَّه السَّراءُ والضَّراءُ

يقول: فيه حلاوة لأوليائه، ومرارة لأعدائه، وهو مع ذلك إنسان واحد، قواه مجتمعة غير متباينة، وأوّل هذا المعنى للبيد:

مُمِقرٌ مرٌّ على أَعْدائِهِ وعلى الأدنَين حلوٌ كالعَسَلِ

ثم تبعه الآخرون فقال المسيب بن علس:

هم الرَّبيعُ على من ضافَ أرحُلَهم وفي العدوِّ مناكيدٌ مشَائيم

وقال علاقة بن عركيّ:

وكنتم قديمًا في الحروبِ وغيرها ميامينَ في الأدنى لأعدائكُم نُكْدُ

وقال كعب بن الأجذم:

بنو رافعٍ قومٌ مشائيمُ للعِدى ميامنُ للمولى وللمتجرِّم

وقال النابغة الجعدي:

فتىً تَمَّ فيه ما يَسَرُّ صديقَه على أنَّ فِيهِ ما يسُوء الأَعادِيا

قال ابن فورجة: مجتمع القوى يعني قويّ العزائم والآراء، وأنكر القول الأول وهو قول ابن جنّي. ا. هـ.

أَعْدَى الزَّمانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ ولقَدْ يَكونُ به الزَّمانُ بَخِيْلا

قال ابن جنّي: أي تعلم الزمان من سخائه فسخا به، وأخرجه من العدم إلى الوجود، ولولا سخاؤه الذي أفاد منه، لبخل به على أهل الدنيا، واستبقاه لنفسه، قال ابن فورجة: هذا تأويل فاسد، وغرضٌ بعيدٌ، والسخاء بغير الموجود لا يوصف بالعدوى، وإنما يعني سخا به عليّ وكان بخيلًا به، فلمّا أعداه سخاؤه أسعدني الزمان بضمّي إليه وهدايتي نحوه، هذا كلامه، والمصراع الأول مقول من قول ابن الخيّاط:

لمستُ بكفِّي كَفُّهُ أبتغِي الغِنَى ولَمْ أدرِ أنأنّ الجود من كفه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدتُ وأعدانِي فأتلفتُ ما عِنْدِي

وقال الطائي أيضًا:

عَلَّمني جودُكَ السَّماحَ فما أبقيتُ شيئًا لديَّ من صِلتك

وقال أيضًا:

لستَ يحيى مصافحًا حَين أُلقى أنَّني إنْ فعلتُ أتلفتُ مالي

وأبو الطيب نقل المعنى إلى الزمان، والمصراع الثاني من قول أبي تمام:

هيهاتَ أن يأتـي الزَّمـانُ بمثلـه إنَّ الزمـــانَ بمثلـــه لبخيـــلُ

الحـبُّ ما منـعَ الكـلامَ الألـسَنا وألـذُّ شَـكْوى عاشِـقٍ ما أعْلَنـا

رُوِيَ الألسَنا - بفـتح السين - ويكون على هذه الرواية بمعنى الذي يقـول: غاية الحبّ ما منع لسانَ صاحبه من الكلام، فلم يقدر على وصف ما في قلبه منه كما قال المجنون:

ولما شَكوتُ الحبَّ قالت كَذَبتني فمالي أرى الأعضاءَ منك كَواسِيا

فما الحبُّ حَتَّى يلصقَ الجلدُ بالحَشا وتَخرسَ حتَّى لا تجيبَ المناديا

وكما قال قيس بن ذريح:

وما هُـــو إلا أنْ أرَاهَـــا فجـــاءةً فأبهـــتُ حتَّى ما أكـادُ أجـيبُ

ويجوز - أيضًا - أن يكون ما بمعنى: الذي، على رواية من روى الألسُنا - بضم السين -، والظاهر أن ما نافية؛ لأن المصراع الثاني حث على إعلان العشق، وإنما يعلن من قدر على الكلام وكما يقول الموصلي:

فبُحْ باسمِ من تَهوى ودَعني من الكِنَى فلا خير في اللذاتِ من دونِها سترُ

ويقول السري الرفاء:

ظهرَ الهوى وتهتكت أستارُه والحبُّ خيرُ سبيله إظهارُه

أَعْصِي العواذلَ في هَواه جَهارةً فألذُّ عيشِ المستهامِ جَهارُه

*****

وإذا أتتكَ مَذَمتِي من ناقصٍ فهي الشَّهادةُ لي بأنّي كاملُ

يقول: إذا ذمني ناقص كان ذمّه دليل كمالي وفضلي؛ لأن الناقص لا يحبّ الكاملَ الفاضلَ لما بينهما من التفاضل، وهذا من قول أبي تمام:

لقدْ أَسِفَ الأعداءُ مَجْدَ ابنِ يوسُفٍ وذو النَّقصِ في الدَّنيا بذي الفَضْلِ مُولعُ

وأخذه هو من قول مروان بن أبي حفصة:

ما ضَرَّنِي حَسَدُ اللئامِ ولم يَزلْ ذو الفَضّلِ يَحْسُدُه ذوو التَّقْصِيرِ

وأصل هذا من قول الأول الطِّرماح:

لقدْ زادَني حبًا لنفْسِي أنَّنِي بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طائلِ

وأنّي شَقيٌ باللئَامِ ولا أرى شقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائِلِ

*****

أبدُو فيسجدُ من بالسُّوءِ يذكُرني ولا أعاتِبُه صفحًا وإهوانا

يقول: من يذكرني بالسوء في غيبتي إذا ظهرت له عظمني، وخضع لي، وأنا أعرض عن عتابه إهانة له، وإنما قال إهوانا لأنه أخرجه على الأصل ضرورة كما قال المَّرار الفقعسي:

صَدَدْتَ فأطولتَ الصُّدودَ وقلَّما وصالٌ على طُولِ الصَّدُودِ يدومُ

يريد فأطلت فجاء به على الأصل.

وهكذا كَنْتُ في أهلِي وفي وطَنَي إنّ النَّفيسَ غَريبٌ حيثما كانا

يقول: كنت وأنا في وطني وفيما بين أهلى غريب، قليل الموافق والمساعد، ثمّ قال: وكذلك الرجل النفيس العزيز، غريب حيث كان، كما قال أبو تمام:

غَرَّبتهُ العُلَى علىَ كثْرةِ الأهـ ـلِ فأضْحى في الأقربين جنيبًا

فليطلْ عُمْرهُ فلو ماتَ في مَرْ وَ مقيمًا بها لماتَ غريبًا

****

مُحَسَّدُ الفَضلِ مكذوب على أثَرِي ألقى الكَمِيَّ ويلقانِي إذا حانا

قوله مكذوب على أثري من قول البرج التغلبي:

يَغْتَابُ عِرْضي خالياً وإذا تلاقينا اقشعرَّا

ومن قول سويد بن أبي كاهل:

ويُحيِّيني إذا لاقيتُه وإذا يخلُو له لَحْمي رَتَعْ

وتقدير الكلام مكذوب عليّ على أثري، أي يُكذب عليّ إذا قمت وخرجت من مشهد ومجمع، والشجاع إذا حان حينه لقيني في المعركة.

*****

وأحسَبُ أنِّي لو هَوَيتُ فِراقَكُم لفَارقتُهُ والدَّهرُ أَخْبثُ صاحبِ

يريد أن الدهر يخالفه في كل ما أراد، حتى لو أحب فراقهم لواصلوه، وكان من حقه أن يقول لفارقتني؛ لأن قوله لفارقته فعل نفسه وهو يشكو الدهر، ولا يشكو فعل نفسه، ولكنّه قلبه؛ لأن من فارقك قد فارقته فهذا من باب القلب، وإنما قال أخبث صاحب، وكان من حقه أن يقول أخبث الأصحاب؛ لأنه أراد أخبث من يصحب، وما كان اسم فاعل في مثل هذا يجوز فيه الإفراد والجمع.

قال الله تعالى:﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١] يعنى لاتكونوا أول من يكفر به وأنشد الفراءُ:

وإذا هُمُ طَعِمـوا فألأمُ طاعِمٍ وإذا هُمُ جَاعُوا فشَرُّ جِياعِ

فأتى بالأمرين جميعًا، وأشار أبو الطيب إلى أن من أهواه ينأى عني، ومن أبغضه يقرب منى لسوء صحبة الدهر إياي، كما قال لطف الله بن المعافى:

أرى ما أشتَهِيه يَفِرُّ مِنِّي وما لا أشْتَهيهِ إِلَيّ يأتي

ومن أهواهُ يُبغِضُني عنادًا ومن أَشْنَاه يَشْبثُ في لهاتِي

كأنّ الدَّهرَ يطلبُني بثأرٍ فليس يَسُرُّه إلا وفاتِي

*****

ذو العقلِ يَشْقى في النَّعيمِ بعقلِه وأخو الجهالةِ في الشَّقاوة يَنْعَمُ

يريد أن العاقل يشقى وإن كان في نعمة لتفكّره في عاقبة أمره، وعلمه بتحول الأحوال، والجاهل ينعم وهو في الشقاوة لغفلته، وقلة تفكره في العواقب وقد قال البحتريّ:

أرى الحلمَ بؤسًا في المعيشةِ للفتى ولا عيشَ إلا ما حبَاك به الجهلُ

وقال أبو نصر بن نباتة:

من لِي بِعيشِ الأغبياءِ فإنَّهُ لا عيشَ إلا عيشُ مَنْ لمْ يعلَمِ

وسابق هذه الحلبة بن المعتزّ في قوله:

وحــلاوةُ الدَّنيــا لجاهِلهـــا ومَـــرارة الدَّنيــا لمــن عَقَــلا

وأحسن ابن ميكال في قوله:

العقــلُ عــن دركِ المطالبِ عَقْلــةٌ عجبــًا لأمــر العاقــلِ المعقــولِ
وأخــو الدرايــةِ والنباهــةِ متعبٌ والعــيشُ عيــشُ الجاهــلِ المجهولِ

وقد قال القدماء: ثمرة الدنيا السرور، وما سُرَّ عاقل قط؛ يراد بتفكُّره في العواقب وتخوفه إياها.

obeikandl.com